فَصْلٌ

في كلامِ الوزراءِ في أسرارِ الملوكِ والوزارةِ

كانَ الربيعُ بنُ يونسَ يقولُ: من كلَّم الملوكَ في الحاجاتِ في غير أوقاتِ الكلام، لم يظفرْ ببغيتهِ، وضاع كلامُه.

وما أشبه الحالَ في ذلك إلا بأوقاتِ الصلاةِ، فإن الصلاةَ لا تُقبل إلا فيها، فَمَنْ أرادَ خطابَ الملكِ في حاجته، فليترصدِ الوقتَ المنجح، الذي يصلُحُ في مثلِه ذِكْرُ ما أرادَ، ليحصَلَ على النجْح، وإلا فلا.

وكان يحيى بنُ خالدٍ يقول: عجبتُ للمَلِكَ كيفَ يحسنُ وهو لا يسيء، إلاّ ويجد مَنْ يحسنُ إساءتهَ إليه!!

وكان الفضلُ بنُ سهلٍ يقول: من أحبَّ المزيدَ من النعم، فليشكرْ، ومَنْ أحبَّ المنزلةَ عند سلطانه فليكفه، ومن أحبَّ السلامةَ فليلزمِ الحذرَ.

وكان أخوه الحسنُ يقولُ: لا يصلح أن يكونَ الصَّدْر إلا واسعَ الصدرِ.

ولما أمرَ المعتصمُ القُوَّادَ والأشرافَ بالترجلِ (لأشناسَ) والمشيِ بين يديه، كان فيهم الحسنُ بنُ سهلٍ، فبينما هو يمشي إذْ انكسع فالتَفَتَ إلى حاجبه، وهو يبكي فقالَ له ما يبكيك يا بني؟ قال: يا مولايَ عهدي بكَ في أيام المأمون والناس قد ترجلوا لك، ومشوا بين يديك، وأراك اليوم تمشي بينَ يديّ هذا، فقال: يا بنيَّ ذاك يومٌ أرادَ السلطانُ أن يشرفَنا، وهذا يومٌ يريدُ أن يُشرِّفَ بنا.

ولما أراد المأمون أن يستوزِر أحمدَ بن أبي خالدٍ، قال له: يا أميرَ المؤمنين، إن الوزارةَ غايةُ الغاياتِ، فدعني ليكونَ بيني وبينها منزلةٌ، يرجوها الصديقُ، ويخافها العدو.

ولما عزلَ المأمونُ وزيرَه أبا عباد، قال: واللهِ ما رأيتُ يوماً أشبهَ بيومِ القيامةِ من يومي هذا، لأني أرى قوماً أحسنتُ بهم، فأودُّ لو كنتُ زدتهم، وأرى آخرين أسأتُ إليهمْ فأودُّ أني لم أفعلْ.

وكانَ يقولُ: وزيرُ السلطانِ كراكبِ الأسدِ، يهابه الناسُ وهو لمركبِه أهْيبُ.

وكان الفضلُ بنُ مروانَ، يقول: الملكُ عقيمٌ، ولا أرحامَ بين الملوك وبين أحد، ومَنْ بالغَ جهدَه في مناصحة السلطان اتهمه، ومن عرفَ منه مذهباً في دينه يخالف مذهبه، غيّره به، ورصده بالعقابِ عليه، وما رأيتُ أقربَ رضا من سخطٍ، ولا أسرعَ ما بين قُربٍ وبُعْدٍ، من الملوك.

وعاتبَ المتوكلُ وزيرَه محمدَ بنَ الفضلِ الجرجانيَّ، على اشتغاله بالملاهي، والقيان، عن أعمال السلطان، فقالَ: يا أميرَ المؤمنين: إني ربما أستعينُ بالهزلِ على الجد، لأنَ مقاساةَ عمومِ أهلِ المشرقِ والمغربِ، لا يتأتى إلا باستجلابِ شيءٍ من السرورِ، فقال: صدقتَ وعذَرَه.

وكانَ عبيدُ اللهِ بنُ يحيى بنِ خاقانَ يقول: إذا دهانا أمرٌ تَمَثَّلناه في أصعبِ حالاتهِ فما نقص منه كان سروراً نتعجله.

وكان أحمدُ بنُ إسرائيلَ وزير المعتزِّ قبل تقلّده الوزارةِ يذمُّها ويَتَكرَّهها، ثم تقلّدها برغبةٍ شديدةٍ، فقيل له في ذلك؛ فقال: هي واللهِ مركبٌ شريفٌ، شهيٌّ لذيذٌ، لا تطيبُ النفسُ بتركهِ على ما فيه من الخطر.

وكانَ الحسنُ بنَ مَخلَدٍ يقـول: لو نصبَ السلطانُ قصبة لَنفَدَتْ أمورُه إذا لم يكنْ لها معارضٌ، وكان أسنى الوزراءِ مُروءةً وتحملاً، وآلاتٍ ومنزلاً، وكان يقـول: أمرُ أمثالِها يجيءُ جملة، ويذهب جملة، فلمَ لا نتعجلُ اللذاتِ قبل فوتها، ونتمتعُ بصفوِ الزمانِ قبل كَدرَه.

وجَمَعَـه وسعيـدَ بنَ حُميدٍ مجلسٌ فأربى عليه سعيـدٌ في المحاضرةِ في الأخبـارِ والأشعـارِ، والنُّتف والمُلَحِ حتى قال له: يا أبا عثمانَ لو بليت بحفظ الدنيا ناحيةً ناحيةً، وتبلغ خراجَها كورةً كورةً لمنعك ما أنت فيه، وأشد منه لو شرعتَ في كلامِ خليفةٍ وأنتَ لا تقفُ على ما في نفسِه، حتى إذا توسطته بـان لك ما في ضميرِه فأردتَ نقلَ الـكلامِ إلى ضدِّ ما كنتَ فيه، لعلمتَ أن هـذه صناعةٌ تَضيعُ فيها العقـولُ، فقال: صدقتَ يا سيـدي، إن القليل من الأكثرِ مما نحن فيه.

وكانَ العباسُ بنُ سهلٍ يقول: مَثَلُ المتصرِّفِ كمَثلِ الخياطِ، يقطعُ يوماً ديباجاً نسيجاً بألفِ دينار، ويوماً قوهياً بعشرين درهماً.

وكانَ أبـو الحسن بنُ الوراقِ يقول: ما رأيتُ أحداً على بابي، وفي داري، ليـس لي عنده إحسـانٌ إلا استحييت منـه، وصَرَفتُ عنايتـي إلى إرفاقِهِ، وتحصيـل مُراده، ولولا حبُّ المُروءة ما رغبتُ في الرياسة والوزارة. وعُوتب على تقليده قضاءَ البصرةِ من لا يصلُحُ له، فقال: فلم هُنِّئتُ بالوزارة؟

وكان أبـو محمدٍ المهلبيُّ يقول: مـن تعرّضَ للمصاعبِ تثبّتَ للمصائبِ، ومن كلامِه: التصرّفُ أسنى وأعلى، والتعطلُ أعفى وأصفى.

وكان أبـو علـي يقول: أنا في وزارتـي أُقدِمُ على العظائـم كلِّها، إلا على اثنين؛ إزالةِ النِّعَمِ وهَتْكِ الحُرَم.

وكان أبو محمد عبدُاللهِ بنُ محمدٍ يقول: الهديةُ تردُّ بلاءَ الآخرةَ.

وكان ابنُ عبادٍ يقول: مرضاةُ السلطانِ لا تغلو بشيءٍ من الأثمان.

قال: واستشارَ بعضُ ملوكِ العجمِ وزراءَه، فقال أحدهم: لا ينبغي للملكِ أنْ يستشير منا أحداً إلا خالياً به، فإنه أَمْوَتُ للسرِّ وأحزمُ للرأيِ، وأجْدَرُ بالسلامة، وأعفُّ لبعضنا من غائلةِ بعضٍ، لأن إفشاءَ السرِّ إلى رجلٍ واحدٍ أوثقُ من إفشائه إلى العامّة، لأن الواحدَ رهنٌ بما أفشى، والثاني يُطْلِقُ عنه ذلك الرهن، والثالث علاه فيه، فإذا كانَ سِرُّ الرجلِ عند واحدٍ كان أحرى ألاّ يُظهِره، رهبةً منه، ورغبةً إليه، وإذا كان عندَ اثنين دخلَ على الملك الشبهةُ والتشعبُ على الرجلين، للمعارضة، فإنّ عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانةِ مجرمٍ، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما، ولا ذنب له، والآخر ولا حجة عليه، وكان يقال: إنما قيل: لمدبر الأمورِ عن الملكِ وزيراً من الوِزْر، وهو الحِمْل يُرادُ أنّه يَحْمِلُ عنه من الأمورِ. قال جلَّ ذكره: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾[1] أي: حَطَطْنا عنك حِملك.

(1) الانشراح: الآية (2).